مقتطفات من:

كارل هاينز أوت
العصر الحديث الملعون
تاريخ
التفكير الرجعي

دار نشر هانزر

الطبعة الأولى 2022

كارل هاينز أوت: العصر الحديث الملعون ـ تاريخ التفكير الرجعي
دار نشر هانزر
العنوان الأصلي للكتاب:
Karl-Heinz Ott: Verfluchte Neuzeit - Eine Geschichte des reaktionären Denkens
الطبعة الأولى 2022
رقم الإيداع الدولي: 978-3-446-27097-8
© 2022 دار نشر كارل هانزر
الغلاف: Peter-Andreas Hassiepen، ميونخ
الصورة: عبور المرشال بلوشر الراين 1814/ نقش خشبي محاكاة لريشتر.
© akg-images
تجميع: Greiner & Reichel, GmbH
الطباعة والتجليد: CPI books GmbH, Leck
طُبع في ألمانيا

للاطلاع على مزيد من المعلومات عن الكتاب

www.hanser-literaturverlage.de
© 2021 Carl Hanser Verlag GmbH & Co. KG, München

مقدمات
هل يمكن لعن عصر بأكمله؟

هل يمكن لعن العصر الحديث؟ العصر الحديث ككل؟ يمكن للمرء أن يمقت الباروك لما اتسم به من مبالغة، أو الرومانسية لما عُرف عنها مِن مبالغة في تقديس المشاعر، أو حقبة ما بعد الحداثة لاختياراتها التعسفية.

هناك أيضًا الكثير من الكتابات بعنوان "أعداء التنوير" أو "أعداء الحداثة"، إلا أنه لا يوجد أي حديث عن أعداء "العصر الحديث"؛ ومع ذلك فهم موجودون، وهم ليسوا قليلين؛ والآن يعلو صوتهم مرة أخرى.

أين يبدأ العصر الحديث؟ أين ينتهي؟ ماذا سيأتي بعده؟ لا يمكن لشيء أن يكون أحدث من الحديث. ينتمي إلى صورة العصر الحديث الشعور بالوصول إلى الذروة، كما ينتمي إلى الذروة الشعور بنهاية مُحدقة. منذ قرون تطالب الأصوات القلقة بالعودة: إلى عصر الإغريق، إلى الدين، أو إلى أي شيء آخر؛ إذ أن العصر الحديث يعني الحرية، والحرية تعني "فُقدان المَنبَت" Bodenlosigkeit - على الأقل في نظر منتقدي العصر الحديث. منذ أن فقدت الكاثوليكية قوتها في العصور الوسطى، وجعل لوثر ضمير كل فرد مركز الاهتمام، لم تتفكك المؤسسات التي تمثل حراسًا إلهيين على الحقيقة فحسب - بل تم إضعاف الحقيقة نفسها عن طريق جعلها شخصية. أصبح كل فردٍ يصنع صورته الخاصة عن العالم، كل فردٍ لديه فكرته الخاصة عن الحياة. المعنى *الوا*حد الكبير يتفتت إلى آلاف المعاني الممكنة. شعار ما بعد الحداثة هو: كل شيء مباح. وُضعت بذرة ذلك منذ نصف ألف عام، في بداية العصر الحديث. يلقي البعض باللوم على لوثر، والبعض الآخر على ديكارت، والبعض الآخر يلوم الإلحاد المتفشي والرأسمالية المتنامية، التي لا تعرف إلا مُقدسًا واحدًا: المال والنجاح.

لم يسبق لعصر أن آمن بالطوباويات بهذا القدر، أو ينتظر بشدة نهاية العالم مثل هذا العصر. هناك حديث مستمر عن الدمار، والكوارث تهدد باستمرار. من الواضح أن الحرية التي نقدرها كثيرًا ليس لها تأثير جيد علينا. إننا نتحول منذ فترة إلى خُطاة تائبين، يلعنون إعجابهم بأنفسهم. لم يكن هناك نقص في الإشارات، ليس فقط من الجانب البيئي. لطالما حذرت الأصوات المحافظة من "فُقدان المَنبَت" في العصر الحديث. أما المنتمون إلى جبهة التقدم فيعجبون من ذلك منذ فترة طويلة.

في غضون ذلك، أصبحنا نواجه تطورات سياسية لم يكن من الممكن تصور حدوثها في العالم الغربي بعد ما شاهده من أشكال الشمولية في القرن العشرين، التي كنا نظن أننا تعلمنا منها درسًا دائمًا. بالنظر إلى الماضي، يبدو أن النصف الثاني من القرن المُنصرم كان وقتًا سعيدًا، على الأقل في الجزء الذي نعيش فيه من العالم، حيث تم اعتبار الديمقراطية أسلوب حياة بديهي، باستثناء

الهوامش المعتادة. بعد سنوات قليلة من عام 1989، تم الإعلان عن نهاية التاريخ، مما يعني أنه حتى النصف الشرقي من الكرة الأرضية أصبح يدرك الآن أنه لا يوجد بديل للديمقراطية، على الأقل لا يوجد بديل أفضل منها. لقد انتصر النموذج الغربي بكل ما يتماشى معه من: التنوير والعالمية وحقوق الإنسان.

بدت الحرية شرطًا أساسيًا للتقدم والازدهار. ولكننا نرى الآن أن مثل هذه الأشياء يمكن أيضًا التمتع بها دون حرية، وليست الصين المثال الوحيد الذي يمكن أن يثبت صحة ذلك. حتى في العالم الغربي، تحول اتجاه الفكر السائد بشكل أسرع مما يمكن أن يتخيله أي شخص إلى أسوأ كابوس. نحن الآن نتساءل ما الذي يدور في أذهان كثير من الأشخاص الغاضبين الذين لا يعتقدون أن نوع الديمقراطية لدينا أصبح لا يساوي فِلسًا واحدًا بعد الآن. نحن نبحث عن الدوافع والأسباب والعلاقات.

الجواب: إنها العولمة، الهجرة، تراجع التصنيع. هناك حديث عن فقدان كل أوجه الأمن، وعن الإفراط في المتطلبات بصورة تؤثر على كل مجال من مجالات الحياة، وليس فقط على الجوانب المادية. يتم خوض معارك أيديولوجية كما لم يحدث إلا نادرًا من قبل، كما أصبحت تلك المعارك تدور دائمًا حول الأمر برُمته. ماذا بقي للمرء كي يقوله، كيف يجب أن يفكر، أين تقع تلك الحدود المتغيرة باستمرار، هذه هي الأسئلة الحاضرة في كل مكان. هناك أيضًا حديث عن الفجوة التي تتسع باستمرار بين أولئك الذين يكسبون بصورة متزايدة وأولئك الذين تقل مكاسبهم بصورة متزايدة. لقد نشأت هوة بين الفائزين بالعولمة متعددي اللغات وبين الذين تخلفوا عن الركب، تلك الهوة التي لم نرغب لفترة طويلة في إدراك وجودها. يَسعدُ البعض بحقيقة أن العالم أصبح بالكاد يعرف الحدود الفاصلة بين دوله، في حين يريد البعض الآخر إعادة بناء الجدران العازلة. الرغبة في الاستبداد تنمو. في تلك الأثناء يبدو النصف الثاني من القرن العشرين كما لو كان فترة سلام خادعة.

ومع ذلك، ليس فقط أولئك الذين تُركوا وراء الركب هم الذين يتمنون القيام بعملية محو لما هو قائم، للبدء من جديد، بل تنتشر حالة مزاجية عامة من الاعتراض حتى في صفوف مَن ليس لديهم مخاوف اقتصادية. أصبح عدد غير قليل ساخطًا على النُخب رغم كونه جزء منها. لا يعاني هؤلاء الساخطين من نقص الاهتمام بهم، ولا من حظر الكلام، ومع ذلك، فإنهم يعتقدون أن عليهم إعادة النظر في الديمقراطية الحالية. إنهم ينادون بالأُمة، والقيم التقليدية، والتوجه الروحي، والأخلاقي. البحث في الأسباب الاقتصادية لن يساعد في فهم ذلك إلا قليلًا. إنهم مهتمون بإنقاذ الغرب، مثل أوزوالد شبنجلر، الذي بالكاد آمن بإمكانية الإنقاذ تلك. لا تقتصر عواقب عام 1989 على انهيار الاتحاد السوفيتي فحسب، بل تشمل أيضًا تصدعات حدثت في الغرب. بما أن الصورة الكبيرة الواضحة للعدو لم تعُد موجودة، والتي في ضوءها بدت الظروف المعيشية المحلية، في الماضي، وردية دائمًا، فإن النظرة تكون أكثر قسوة عندما تتجه إلى صراعاتنا الداخلية.

في حين أن الاعتماد العالمي على "جميع الأطراف" يدعو إلى الانفتاح في كل مكان، ولو لأسباب اقتصادية فقط، فإن الحاجة إلى تمايز وتفرد الهوية آخذ في الازدياد أيضًا.

كما أن السؤال يطرح نفسه مرة أخرى حول ما إذا كانت السوق الحرة والاقتصادات الرأسمالية هي المعنى الوحيد المتبقي في العالم. الاستياء والغضب والمقاومة تتحرك بطرق مختلفة تمامًا ومتناقضة في كل الزوايا والنهايات. البعض متعطش للنظام والوضوح، والبعض الآخر يريد إكمال هذا المشروع الحديث الذي يهدف إلى أكبر قدر ممكن من اللامحدود.

لطالما انتمى نقد الحداثة إلى الحداثة ذاتها، سواء في جانب اليمين أو اليسار على حدٍّ سواء. ومن المفارقات أن هذا النقد يزدهر بسبب الحرية ذاتها التي يُشكك فيها ذلك النقد. ليس التنوير فقط هو الذي يتعرض للهجوم، والذي يعود تاريخ بدايته إلى القرن الثامن عشر، ولكن العصر الحديث ككل. لا يُعد فولتير وروسو الجانيين الرئيسيين، بل لوثر وديكارت، حيث يتم تحميل هذين الشخصين مسئولية تفكك أمر لم يكن التركيز فيه بعد على الفرد، ولم يُسأل بعد عن رأي كريثي وبليثي. منذ أصبح كل شخص يشعر بأنه مدعو للتفكير والحكم بنفسه، انهار الإيمان بالحقائق الراسخة. أصبح كل شيء نسبيًا، لم يعد شيء مؤكدًا بعد ذلك، اضطر كل شيء مطلق إلى التنازل عن عرش الحقيقة. يصف نيتشه هذه الحالة بالعدمية.

البعض ينسجم مع ذلك الوضع، والبعض الآخر لا. ما يمدحه البعض على أنه حرية، يدينه البعض الآخر باعتباره عبثًا. يحثنا ديكارت على التشكيك في كل أنواع المعرفة والحقيقة، لئلا نخلط بينها وبين النَقل المُجرد. لم يعد الإنسان المعاصر قادرًا على البناء على أي شيء سوى نفسه، وليو شتراوس وكارل شميت وهايدجر ليسوا الوحيدين الذين يتمنون أن ينتهي هذا الوضع قريبًا، بل إن فوكو أيضًا يلعن العصر الحديث.

ربما لا يوجد من بين أولئك الذين شاركوا في مسيرات حركة "بيجيدا" (اليمينية)، أو اقتحموا مبنى الكابيتول، شخصٌ يفكر في ديكارت ولوثر. ولكن ما علاقة هذين الاثنين بأي شيء؟ لن يضطر المرء للبحث كثيرًا لتحديد الأصوات الفكرية اليمينية التي ترى فيهما السبب الأصلي في المشكلة. وممثلو تلك الأصوات لا يصرخون في الشوارع ولا يرفعون شعارات جذابة، فمعظمهم أساتذة ميسورو الحال يعملون كمستشارين سياسيين، ويقومون بالجانب السري من العمل.

كان المرء لفترة طويلة مُتيقنًا من أن العقل يقف تلقائيًا إلى اليسار. لا يكاد أحد يؤمن اليوم بمثل ذلك الاعتقاد في أهمية الذات، الذي انتشر في فترة 1968. لا توجد نخب يسارية ليبرالية فحسب، بل هناك أيضًا محافظون يمينيون، وهم أقدم كثيرًا من مدرسة فرانكفورت. منذ بضع سنوات بدأوا يظهرون مرة أخرى، على غرار عصر مكارثي. إن ممثليهم لا يعملون فقط في الجامعات ومراكز الفكر مع مانحين مؤثرين، بل إنهم يشغلون أحيانًا مناصب وزارية، من واشنطن إلى وارسو. لا يمتد جدول أعمالهم إلى الانتخابات التالية فحسب، بل يعملون على زعزعة أسس العصر الحديث.

قد يبدو هذا مروعًا ومبالغًا فيه، لكنه يعبر عن صلب الموضوع - على المرء فقط أن يطّلع على كتاباتهم. تبدو لغتهم مختلفة تمامًا عن لغة الشارع: دقيقة ومثقفة. يأتي في كتاباتهم كثيرًا الحديث عن أفلاطون والمفكرين الآخرين، ولا يوجد أي أثر للتمرد. قال ماركس ذات مرة: "أن تكون راديكاليًا يعني أن تُمسك بجذر القضية."[1] يربط ماركس هذه المقولة بالتفكير، والعوائق الفكرية تكون في الغالب هي نتائجه. لا تميز الراديكالية التفكير اليساري فحسب، بل تميز التفكير اليميني أيضًا. ينتج عن هذا أحيانًا ترابطات ليست غريبة بالقدر الذي تبدو عليه. في النهاية نجد أن هايدجر، وفوكو، ودون كيخوته (دون كيشوت)، وديكارت يرتبطون ببعضهم البعض ارتباطًا وثيقًا.

العصر الحديث، الحداثة، ما بعد الحداثة

أين يبدأ العصر الحديث؟ أين تبدأ الحداثة؟ أين يبدأ عصر ما بعد الحداثة؟ هل هي متشابهة إلى حد ما، هل هي فقط عملية تصاعدية؟ أم يعبر ذلك في كل مرة عن شيء جديد ومختلف؟ هل العصر الحديث مطابق للحداثة أم أن الحداثة لم تبدأ إلا في وقت لاحق؟ أين يبدأ عصر ما بعد الحداثة؟ هل ينذر بنهاية العصر الحديث، أم أنه يصلُ بما يجري منذ بداياته إلى ذروته؟ مفاهيم وراء مفاهيم، وعصور، وعصور مُنبثقة منها، وعصور الوداع: عصر النهضة، الباروك، التنوير، الرومانسية، الحداثة، الطليعية، ما بعد التاريخ. هناك شيء واحد فقط يبدو واضحًا: لا يمكن للحديث أبدًا أن يتحرك بالسرعة الكافية مع التوجهات الجديدة للحداثة. إنها تزدهر بدافع الهوس للتقدم. ومع ذلك، فإن السؤال هو: إلى أين؟ لا يتم رسم الحدود بشكل تعسفي. من يتحدث عن نهاية التاريخ يتحدث في الحقيقة عن ذروته وليس نهايته.

هذا يعني: ليس هناك "مزيد"، ولا يمكن أن تصبح الأمور أفضل، على الأقل ليس من حيث المبدأ. كل ما جاء من قبل كان تمهيدًا، والعصر الحديث هو الخاتمة. وهو ما لا يعني بأي حال من الأحوال أنه من الآن فصاعدًا لن يحدث شيء ولن يتغير شيء؛ وإنما يعني أن الديمقراطية هي أعلى مراحل التطور البشري وأي شيء آخر سيكون بمثابة انتكاسة. هذه هي الطريقة التي يراها معظم الناس في العالم الغربي، حتى أولئك الذين ينظرون إلى هذا التطور بعينٍ ناقدة. ربما لا يريد أحد حقًا العودة إلى الوراء، حتى لو كان يتوق إلى العصور الوسطى أو عصر الإغريق القدماء أو حالة الطبيعة التي وصفها روسو. يمكننا أن نستغرق في مثل تلك الأحلام، فهي لا تكلف شيئًا؛ إنها أوهام نهرب بها من هنا والآن إلى جنة مصطنعة. ومع ذلك، يبدو أن الحماس للديمقراطية يتضاءل. في عام 1989 كانت لا تزال هناك روح عامة من التفاؤل، وبعد أقل من عشر سنوات بدأ العالم يهتز في كل مكان. وهكذا أضحت نهاية القصة مرة أخرى بعيدة.

لقد حل العصر الحديث محل العصور الوسطى، والجميع متفق على ذلك. ومع ذلك، فإن الإنسان في العصور الوسطى لم يكن يعرف أنه كان يعيش في العصور الوسطى؛ بل أصبحنا نحن نعرف ذلك. وفقًا لكانط، يحدث شيء ما في العصر الحديث يصفه بأنه "خروج الإنسان من القصور الذي هو مسئول عنه" - وهذا هو تعريفه للتنوير. نادرًا ما يظهر فلاسفة ما قبل الحداثة في كتابات كانط، فهو لا يحتاجهم، إذ ليس لديهم ما يضيفونه إليه. بالنسبة له، يظلون في سبات ميتافيزيقي، جعلهم يخترعون أنظمة فكرية يخلطون بينها وبين العالم والواقع. فبدلاً

1

من السؤال عن آليات بناء مجموعة مكعبات "الليجو" الفكرية الخاصة بنا، قاموا بتكديس النظريات، التي تنهار إذا وضعناها تحت العدسة النقدية للعقل الحديث. لقد تصرفوا كما لو أنهم أدركوا النظام الأعمق للعالم دون أن يسألوا أنفسهم ما إذا كان بإمكاننا فعل ذلك على الإطلاق. لم تكن النتيجة سوى بنايات فكرية عقائدية دوجماتية، كما يدعي كانط. يبدأ هذا التطور مع أفلاطون ويبلغ ذروته مع المفاهيمية اللاهوتية الكاتدرائيات في العصور الوسطى.

حتى لو بدت العصور الوسطى بالنسبة لنا الآن ومنذ فترة أكثر تنوعًا، فما زلنا نعتقد أنها كانت بصفة عامة مظلمة. في حين نحب أن نسبح بعيدًا مع كتاب المؤرخ الفرنسي جورج دوبي "عصر الكاتدرائيات" الغني بالصور، أو رواية فيكتور هوجو "كواسيمودو" (نوتر دام دو باريس، أو أحدب نوتردام)، نحن بالتأكيد لا نريد العيش هناك – باستثناء من خلال الأفلام وألعاب الفيديو. في الوقت نفسه، اعتقد كثيرٌ من الرومانسيين أنهم وجدوا في العصور الوسطى كل ما دمره عصر التنوير؛ على المرء فقط أن يقرأ نوفاليس أو أيشندورف. ومع ذلك، فنحن جميعًا في الأساس كانطيون، نؤمن بتقدم العصر الحديث، تقنيًا وفكريًا.

نحن ننظر باحتقار إلى الماضي، رغم كل إعجابنا بالكنائس القوطية، و"الكوميديا الإلهية" لدانتي. لا نريد الاستغناء عن هذه الأشياء بوصفها إرثًا ثقافيًا، لكن هذا لا يغير كثيرًا من إحساسنا بالتفوق. لكن أين يبدأ العصر الحديث؟ ما نسميه Neuzeit "العصر الحديث" في اللغة الألمانية يسمى modern times في اللغة الإنجليزية les temps modernes بالفرنسية. بدأت الحداثة بالنسبة للكثيرين في ألمانيا فقط في القرن التاسع عشر، بل وبالنسبة للبعض الآخر في القرن العشرين، اعتمادًا على ما إذا كنا نفكر في المقام الأول في الفن، أو في بدايات الديمقراطية، أو في عصر التصنيع. أما بالنسبة لبداية العصر الحديث، فقد أرجعه البعض لاكتشاف أمريكا عام 1492، والبعض الآخر يراها في عام 1517، عندما نشر مارتن لوثر أطروحاته. لم يتسبب لوثر في زلزلة عالم الكنيسة فحسب، بل الغرب كله، وما ترتب على ذلك من عواقب عالمية حتى يومنا هذا.

تدين نظرية هوبز عن الدولة بوجودها إلى تجارب حرب الثلاثين عامًا، التي انتهت في عام 1648، قبل ظهور "اللفياثان"[2] بثلاث سنوات. وفقًا لهوبز، فبعد أن تحولت أوروبا إلى ساحة معركة باسم الدين، كان يجب على الدولة الحديثة أن تضمن بقاء الإيمان مسألةً خاصةً. أصبحت منذ ذلك الحين فصاعدا قوانين الدولة فوق كل دين، وعلى المرء أن يخضع لها وحدها. بالنظر إلى داعش وإيران، نفهم نحن أيضًا ما قصده هوبز. أي شخص يعتقد أنه يؤمن بالحقيقة المطلقة في الكتب التي يُفترض أنها مقدسة لا يقبل الخضوع للقوانين التي تنشأ من قِبلِ الناس فقط، وخصوصًا عندما يتعلق الأمر بالكُفار. نجد في بعض الأماكن أن التيارات الإسلامية المتشددة، وكذلك أيضًا الأصوليين المسيحيين، يرغبون في العودة بكل ما لا يتناسب مع نظرتهم للعالم إلى ما كان عليه. كما توجد في المجر وبولندا حكومات في السلطة تعني لها الكاثوليكية التقليدية، التي لم يعرفها بتلك الصورة حتى الفاتيكان، أكثر مما تعنيه الليبرالية الحديثة. وينتشر في الولايات المتحدة الأمريكية الإنجيليون الراغبون ليس فقط في منع تدريس داروين في المدارس، بل أيضًا أي شيء يتعارض مع الاعتقاد بأن الله حَرفيًا خلق العالم في سبعة أيام.

على الرغم من وجود القليل من القواسم المشتركة بين نوفاليس وأيشندورف وكارل شميت، فإنهم جميعًا يلومون البروتستانتية على مساوئ العصر الحديث. وهنا تقوم الحجج الدينية بدورٍ ثانويٍ. تتمثّل شكواهم في أن حركة الإصلاح الديني قد دمرت وحدة الغرب. ما كان مفقودًا منذ ذلك الحين هو سلطة عليا تعطي المغزى للأشياء -

[2] كتاب " اللفياثان: الأصول الطبيعية والسياسية لسلطة الدولة"، ألفه توماس هوبز (1588-1679) ونُشر في عام 1651، يدور حول شرح بنية المجتمع وشرعية الحكومة، ويُعتبر واحدًا من أوائل الأمثلة المؤثرة على نظرية العقد الاجتماعي. (المترجم)

ومعها أي أساس وأي سماء. لم يعد للحياة نظام روحي ولا توجه. يجب على الجميع الآن أن يجدوا معناهم الخاص، فلم يعد هناك معنى مشترك. جمع كلمة "المعنى" (بالألمانية Sinn) هو Sinne، أي "الحواس"، وهذا يوضح كل شيء. من خلال وضع الضمير فوق تعاليم الكنيسة، حوّل لوثر العلاقة مع الله إلى الكينونة الداخلية لكل فرد، وبالتالي نقل المسئولية عن أفعاله وأفكاره إليه. ما يسود من الآن فصاعدا هو الفردية التي تؤدي إلى ارتباك الآراء المتباينة. يقرر الجميع الآن لأنفسهم ما يريدون أن يؤمنوا به، وما لا يؤمنون به. لم يعد هناك شيء متماسك معًا، فكل "أسمنت" من شأنه ربط الأشياء ببعضها البعض أصبح مفقودًا. ما تبقى هو عالم ينهار في تعدديته. الشيء الوحيد الذي يُعتد به بشكل عام هو الإنتاج والاستهلاك، أما باقي الأمور فيقررها كل فرد بنفسه ولنفسه. في سوبر ماركت المعاني، يمكن للجميع الاختيار بحرية وفقًا لمزاجهم. توجد وفرة في رؤى العالم وسِلع الإيمان والقيم.

إن كارل شميت مقتنع بأن التحول البروتستانتي يتجه نحو الأناركية منذ البداية، والتي لا يمكن السيطرة عليها إلا من خلال دولة قوية. على رأسها يجب أن تكون هناك سلطة - مثل الرب - تحدد بشكل مطلق ما يجب فِعله. ولا يعني شميت في خطابه عن اللاهوت السياسي شيئًا غير ذلك. دون سيادة عُليا ينهار كل شيء، إذ هي وحدها مَن يمكنه منع الفوضى. حيث تثرثر آلاف الأصوات، يسود الارتباك التام. "قاوموا البدايات"، هي عقيدة شميت. النظام هو كل شيء، بغض النظر عن الوسائل المستخدمة لتحقيقه والحفاظ عليه.

خلافًا لذلك، فإن الذاتية في العصر الحديث، بما تدعو إليه من أخلاقيات الموقف الداخلي (أخلاقيات القناعة)، وتمحورها حول الفرد، تؤدي إلى معركة الجميع ضد الجميع، إذ سيحاول كل منهم أن يعلو بأخلاقياته وأفكاره الخاصة عن الحقيقة والعدالة إلى المستوى المطلق. لو كان شميت على قيد الحياة اليوم، لوجد في مفهوم "الصوابية السياسية" آخر دليل على صحة كلامه. إلا أن النسبية والفردية والتعددية لا تلقى قبولًا جيدًا على جبهة اليسار أيضًا، حيث نجدُ القناعة بأنه أينما تسود الداروينية الرأسمالية، فإن الحديث عن الحرية والتسامح يكون المراد من ورائه إخفاء مبدأ "الحق للأقوى". ما يبدو في صورة "تعددية" يُخفي حقيقة أن معظم الناس يجب أن يناضلوا في عالم ينتمي في الواقع إلى الناجحين، القادرين على إنفاذ إرادتهم، الطمّاعين. في مقدمة "البيان الشيوعي" يذكر ماركس وإنجلز أن حرية العصر الحديث تتمثل في بيع الذات في السوق كقوة عاملة. ويقول أدورنو: نحن نعيش في نظام مفتوح من رُهاب الأماكن المغلقة. (1)

ومع ذلك، في حين كان أدورنو يحذر من الحلول الاستبدادية، كان الماركسي الأرثوذكسي لوكاتش لا يزال في عام 1969 يعلن في الإذاعة المجرية أن: "الحقيقة موجودة فقط في صيغة المفرد، وليس في صيغة الجمع!" (2) في رواية "الجبل السحري"، يظهر لوكاتش في صورة يسوعي يُدعى نافتا. وهو ما يعبر عنه توماس مان بالفعل من خلال جعله نافتا يعيش في منزل مستأجر لدى لوكاتشيك. كان نافتا يلعنه بوصفه "قمامة ملحدة" من العصر الحديث، ويريد إقامة دكتاتورية البروليتاريا. وأشد ما يكره كانت عبارات الإنسانية التي تقدم الظلم الصارخ لعالمنا على أنه شيء يستحق السعي من أجله. ولأنه كان يريد إقامة نظام ثيوقراطي من القرون الوسطى يُدعى الشيوعية، وصفه خصمه الليبرالي سيتيمبريني بأنه "أمير السكولاستيكيين". (3)

توضح الجملة الأولى من كتابه "تأملات في الفلسفة الأولى" سبب بدء العصر الحديث من منظور فلسفي بديكارت، وهي: "ليس اليوم فقط أُدرك عدد الآراء الخاطئة التي ظننتها منذ طفولتي صحيحة، وأن ما كان قائمًا على مثل تلك المبادئ غير المؤكدة هو أكثر من مشكوك فيه وغير مؤكد؛ ولذلك قررت، مرة واحدة وبجدية في حياتي، التخلص من جميع الآراء التي قبلتها بحسن نية، كي أبدأ من جديد من الأساسيات." (4) في بداية كتابه "مقال عن المنهج" نقرأ أنه قد تعلم ودرس الكثير، ولكنها لم تكن سوى أشياء مليئة بالتناقضات وتتألف من مجرد تكهنات، على الرغم من تسويقها بين الناس على أنها حقيقة. ليس فقط اللاهوت، ولكن أيضًا الفلسفة التي

وصلتنا حتى الآن "تحدثت انطلاقًا من ادعاء امتلاك الحقيقة عن كل شيء، وسمحت لنفسها بأن تحظى بالإعجاب من قِبل الأشخاص الأقل ثقافةً." (5) ولهذا السبب يجب الآن اختبار كل شيء عن طريق التفكير المستقل.

يركز ديكارت من خلال مبدأ "الكوجيتو" (أنا أفكر، إذًا أنا موجود)، على الأنا ومعها هدف وضع العقل الذاتي فوق كل شيء آخر. لم يعد الله نقطة البداية لكل الوجود، ولا العالم؛ وإنما الذات. يدعي بول فاليري أن ديكارت كتب أول رواية حديثة من خلال كتابه "مقال عن المنهج"، ويضيف بأسف شديد: "بشكل مثير للدهشة، أدت الفلسفة التي تلت ذلك إلى تراجع جزء السيرة الذاتية. ولكن يجب على المرء أن يعود لذلك مرة أخرى ويصف حياة النظريات بنفس الطريقة التي يصف بها حياة أوجه الشغف." (6)

كما رفض هوبز أيضًا كل ما لا يزال يتدفق من المدارس العلمية من العصور الوسطى، أو الذي يُعد صحيحًا فقط لأنه مذكور في الكتابات القديمة. (7) في أول مائة صفحة من كتابه "اللفياثان"، لم يكتف بمكافحة "هراء السكولاستيكيين"، بل استنكر أيضًا وجود أشخاص يستشهدون بكلام أرسطو بجدّية شديدة. (8) في حين يستمر ديكارت في رؤية الفلسفة على أنها مهمة، يُقدر هوبز قيمتها بما يناهز الصفر؛ لأنها، من وجهة نظره، مجرد تلاعب بالمصطلحات يكاد يصل إلى حد الجنون. أي شخص يستسلم لحماقات مثل تلك "الثقافة النصية" يتخلى عن قدرته الذاتية على الحكم. (9) بالنسبة له، فإن التجريدات السكولاستيكية ليست أفضل من نبوءات نوستراداموس. (10) كما يسعى هوبز جاهدًا من أجل إصلاح جذري للجامعات: "يجب حظر كل هذا العبث عن الوصول إليها، ويجب أن تسود فيها لغة مفهومة، دون أي ضباب مفاهيمي". (11)

لم يبدأ عصر التنوير في القرن الثامن عشر، بل بدأ مع ديكارت وهوبز، اللذان انضم إليهما سبينوزا باعتباره ثالثهما، والذي رفض الدين في مقالته اللاهوتية السياسية باعتباره مسألة للفقراء فكريًا. لقد انتهت السكولاستيكية، وفقدت الكنيسة السيادة. تم عمل الكثير في أعقاب ديكارت. لكن لماذا يُناصب كثيرون ديكارت العداء، خاصة الأشخاص الذين يتمتعون بكل حريات الفكر في العصر الحديث، ورغم ذلك يعتبرونه الجاني الأصلي الذي يقف وراء الحداثة، ويتمنون التخلص منه نهائيًا؟ بعد سنوات قليلة من الثورة الفرنسية، بدأت حركة أطلق عليها اسم "الرومانسية"، تميزت بحقيقة أنها عبّرت عن الاكتفاء من الإجبار التنويري للعقل. مازال ذلك التيار مستمرًا حتى يومنا هذا، تحديدًا حيث لا يتوقعه أحدٌ للوهلة الأولى. يوضح فوكو عام 1961 في كتابه "الجنون والمجتمع" عقلية العنف في العصر الحديث، التي لا يمكن لأحد أن يهرب منها إلا إذا قَبل المُخاطرة بأن يتعرض للطرد أو السجن. أولئك الذين لا يمتثلون لتلك العقلية يتم وصمهم بأنهم مجانين، أو غير طبيعيين، أو منحرفين. بالنسبة لفوكو، فإن دون كيشوت هو الضحية الأولى لهوس العقلانية في العصر الحديث. لأنه كان يعيش في ماض سادت فيه أخلاق الفرسان، ماضٍ لا نملك سوى أن ننظر إليه بدهشة، فقد وُصم بأنه مجنون. يعتقد المرء التفوق عليه انطلاقًا من عقلية لم تعد تدرك أي شيء يتجاوز أفقها. حتى لو كانت شخصية الفارس الحزين أقدم ببضع سنوات من المُدافع عن مبدأ الكوجيتو، يمكن للمرء أن يقول: دون كيشوت هو ضحية ديكارت. إن نقد العقل يعني نقد لفكر ديكارت، من هايدجر إلى فوكو، الذي يشرح في مقابلته الصحفية الأخيرة: "لقد حدد هايدجر مسيرتي الفلسفية بالكامل"؛ فقد كان بالنسبة له "دائمًا الفيلسوف الأساسي". (12) كلاهما يريد التغلب على النزعة الإنسانية التي هي مجرد مصطلح آخر للهيمنة الراديكالية للذات. تعني النزعة الإنسانية أن الإنسان ينتقل ليصبح في مركز الكون، ولا شيء يجب أن يكون فوقه، لا إله، ولا طبيعة، ولا أي شيء آخر.

بقدر ما لا تزال الذات في العصر الحديث تتحدث عن الرب أو عن شيء أعلى، فإنها لا تمل أبدًا من التأكيد على أنه لا يمكن لأحد أن يعرف ما إذا كان هذا الشيء الأعلى موجودًا فعلًا. الشيء الوحيد المؤكد هو أن كل هذا يتعلق بأفكار تأتي منا، وتخضع للتغيُّر التاريخي. العالم هو ما يحدث في رؤوسنا ولغتنا وأوهامنا. يُستخدم

الآن مصطلح "الإسقاط": نحن أنفسنا جهاز العرض، ويشكل باقي الكون شاشة هائلة تنعكس عليها رغباتنا وأفكارنا ونوايانا. كل شيء يتحول إلى مشروع لتفكيرنا، وتصرفنا، وتغييرنا.

بدأ كل شيء بالذات الديكارتية، التي تشكل نظرتها الآن كل شيء وتحدده. يدمر ديكارت أسس الميتافيزيقيا باستبداله الذات بالوجود. حتى قبل ديكارت، حطم لوثر أسس كل العقائد بجعل الضمير هو السلطة المركزية، مما يعني أنه نقل الإيمان إلى كل فرد، وجعله مسألة علاقة شخصية مع الرب. من الواضح أن مثل هذا الاعتقاد كان من شأنه أن يظل مشوبًا بأوجه عدم اليقين، وأن يؤدي بسرعة كبيرة إلى "الخوف من الفراغ" horror vacui حسب وصف باسكال. ليس من قبيل المصادفة أنه يقول في كتابه "بنسي" Pensées، التي تعني بالفرنسية "الأفكار"، إن الطبيعة تشير في كل مكان إلى إله ضائع، سواء داخل الإنسان أو خارجه. (13)

قام عصر ما بعد الحداثة فقط باستكمال ما كان يجري منذ بداية العصر الحديث. بقدر ما يقول دولوز بحماسة كبيرة إنه، ليس فقط، لم تعد هناك أي وجهات نظر مميزة، ولكن ليس هناك حتى شيئًا مشتركًا نُشير إليه - كما حدث قديمًا مع فكرة أفلاطون عن الخير أو إله الأديان – فإنه، أي دولوز، يرحب بالتطور الذي لم يبدأ في آخر مائة عام أو مائتي عام وحسب، ولكن منذ نهاية العصور الوسطى. إن ما يحتفي به دولوز على أنه تعددية جديدة يوفر للجانب الآخر دليلًا على فُقدان كل تفكير يخلق معنى، ومعه كل نظام يبني معنى. (14) أصبحنا نواجه آلاف المعتقدات ورؤى العالم؛ ولا يوجد أي إطار ملزم ولا أفق لتحديد الاتجاه. كل شيء يتفتت، لا يمكن إيقاف ذلك، والأمر في تفاقُم.

في نظر نقاد العصر الحديث الأساسيين، مثل ليو شتراوس وإريك فويجلين ومارتن هايدجر وكارل شميت، فإننا نتجه منذ خمسمائة عام نحو عدمية لا تعرف سوى عشوائية المزاج الاجتماعي، والآراء العاصفة، وتغيير القواعد اللغوية. يدعي فوكو أن الأدب الحديث يدمر نفسه بنفسه من خلال دورانه بصخبٍ متزايد، وبطريقة تصم الآذان، ولا حدود لها، حول فراغ يتكون في النهاية فقط من مرجعيات ذاتية، لا شيء يقبع ورائها سوى همهماتها الخاصة. (15) يقول دريدا: " بطريقة ما لا يعني *التفكير* شيئا"؛ إنه (أي التفكير) يعيش، كما يدعي دريدا، من "الفضاء الأبيض الذي يتخلل النص". (16)

حقيقة أن وجود الأجناس البيولوجية محل نزاع الآن يوفر للمشككين المعروفين دليلًا قاطعًا على أنه لم يعد هناك أي مكابح أو توقُّف. بابل الجديدة ليست أمامنا، نحن نعيش في وسطها. وقد تم تحذيرنا بالفعل.

(ترجمة صلاح هلال)